﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

(الحياء نشأ في الجنة)

لما أمر الله بإصلاح ذات البين ونوه بعقد الأخوة الذي ربط الله به بين قلوب المؤمنين نهاهم في هذه الآية عن أسباب الفرقة التي تؤدي إلى العداوة والبغضاء فلكي نقتلع جذور الخلاف والشقاق ولكي نعيش في ود ووئام لابد أن نتجنب الأسباب التي تمزق أواصر المحبة وتقضي على مشاعر الأخوة وذلك بأن نطهر قلوبنا من التعالي والكبر والاستهزاء واحتقار الناس.

فالسخرية والألفاظ النابية والألقاب السيئة تزيل حجاب الحياء، وتصبح الكلمات البذيئة بتكرارها أمرًا مألوفًا غير مستقبح وإنما يبدأ فساد العلاقات بين الناس عندما تصغر أو تهتز قيمة الإنسان في عين الآخرين بحيث لا تصبح له حرمة وعندئذ ينعدم الاحترام بين الناس وتنتشر مقالة السوء بين الصغار والكبار ويتعود الناس على البذاء.

فإن من أعظم ما يميز البشر هو صفة الحياء التي توارثوها من أبيهم آدم وأمهم حواء وذلك حينما بدت لهما سوءاتهما فبادرا بسترها بورق الجنة كما قال عز وجل: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

فالإنسان يشعر بفطرته النقية أن للآخرين حرمة لابد أن تحفظ ولا تنتهك، ولذلك فمن رزق الحياء فإنه لا يفكر في تجاوز حقوق الآخرين أو الاعتداء عليهم. لذلك

يسعى الشيطان لتجريدهم من تلك الصفة وإغرائهم على الاستهانة بالآخرين والتقليل من شأنهم ليسهل عليهم بعد ذلك الاعتداء على حقوقهم وحينما اعتقد اليهود أنهم شعب الله المختار وقالوا: ليس علينا في الأميين سبيل استباحوا حرمات الآخرين وأقدموا على نهب ثرواتهم وسفك دمائهم.

كما أن هذه الرذائل كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب تؤدي إلى إشاعة الفاحشة بين أفراد المجتمع لأن الذي تلمزه وتسخر منه سيعيبك أيضًا فتسقط هيبة الجميع ويرتفع حجاب الحياء وتصبح الكلمات الجارحة على كل لسان ويعتاد الناس على ذلك فتنتشر السلبية واللامبالاة. كما أنها تقضي أيضًا على مشاعر الأخوة وأواصر المودة وتزرع العداوة والبغضاء وتولد الرغبة في التشفي والانتقام.

وأصل الاستهزاء والسخرية واحتقار الآخرين هو إبليس حينما قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

* * *

التكبر والسخرية من أخلاق الشياطين

فما منعه من امتثال الأمر إلا الكبر. فالدافع إلى السخرية هو الإحساس بالاستعلاء والكبر والغرور والتطاول بالقيم المادية كمن يرى نفسه أكثر مالاً وأعز نفرًا من صاحبه فيظن أنه ما فضل عليه بالغنى إلا لأنه أحسن منه مكانة وقدرًا ونسي أن المعيار الحقيقي هو التقوى وطهارة القلب وخلوص النية والأخلاق الكريمة وقوله عز وجل: ﴿عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، و﴿عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١] هو علة النهي، أي لا تسخروا فقد يكون من تسخرون منه أفضل مكانة عند الله منا ونحن نجهل قدره والخير الذي في قلبه ولا نرى إلا القشور والمظاهر والجوانب السلبية فقط.

ولعل مميزات الآخرين التي نجهلها هي أعظم أثرًا وأكبر نفعًا للناس، فالمقياس عند

الله ليس الأمور المادية أو المظاهر ولكن تقوىٰ القلوب والعمل الصالح كما سيأتي بعد ذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالله عز وجل كما ورد في حديث مسلم لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أموالكم ولكن إلىٰ قلوبكم وكما قال عز وجل: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]. فهناك قيم أخرىٰ قد تخفىٰ علىٰ الناس ويعلمها الله وتوزن بها أعمال العباد وتعرف بها أقدار الناس.

فلا ينبغي النظر فقط إلىٰ المظاهر: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] ويقول أيضًا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥] وقوله عز وجل: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠] فأمثال هؤلاء ملء الأسماع والأبصار ولكن أفئدتهم هواء وقلوبهم من التقوىٰ خواء.

والفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ففي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون» أي أصحاب الغنىٰ لم يدخلوها بعد وفي حديث البخاري: «إنما ترزقون بضعفائكم وتنصرون بضعفائكم».

وفي الحديث المتفق عليه أنه مر رجل علىٰ النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «ما رأيك في هذا؟» فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع فسكت رسول الله ﷺ، ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ: «ما رأيك في هذا؟» فقال: يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين حري إن خطب ألا ينكح وإن شفع ألا يشفع وإن قال ألا يسمع لقوله، فقال ﷺ: «هذا خير من ملء الأرض مثل هذا».

لا يزن جناح بعوضة

وفي الحديث المتفق عليه أيضًا: «إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة» وهو مصداق قوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٥-١٠٦].

وروى الشيخان أيضًا: «بينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكبًا على دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل على ثدي أمه يرضع منها، ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهنالك تراجعا الحديث فقالت: مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها؟ قال: إن ذلك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق فقلت: اللهم اجعلني مثلها».

وفي حديث مسلم: «رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره» ورب مسخور منه أفضل عند الله من الساخر. والأحاديث في هذا الباب كثيرة وهي تكفي في جعل المسلم يتردد كثيراً بل ويتوقف تمامًا عن السخرية بالآخرين ولا سيما إذا وضع نصب عينيه حديث الترمذي: «لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك» فالناس إما مبتلى وإما معافى، فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية.

وطوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب الناس ولمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من لسانه.

السخرية سوء أدب مع الله

وحسبك أن السخرية لم تأت في القرآن إلا من الكافرين أو المنافقين فهي لا تصدر أبدًا من المؤمنين فاحتقار المسلمين إنما يصدر عن كبرياء وعظمة وهما لله وحده كما في الحديث القدسي الذي رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**» وفي حديث مسلم: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» ولذلك لما أبى إبليس السجود لآدم كبرًا وحسدًا طرد من الجنة كما قال عز وجل: ﴿**فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٣] فاحتقار المسلم شر ما بعده شر كما في الحديث الذي رواه مسلم: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**».

والساخر حينما يسخر من خلقة أخيه الجسدية كالأمور المتعلقة بالحسن والقبح فإنه ينسى أن الجمال زائل وأنه يسخر من أمر لا يملك المسخور منه تعديله أو تغييره ولو أن الله خلق هذا الساخر على هذه الهيئة التي يسخر منها لأسقط في يده ولما استطاع أن يغير من الأمر شيئًا.

كما أن السخرية من الصورة أو الشكل إنما تعني الاعتراض على الخالق عز وجل الذي خلق وصور وأتقن وأبدع، يقول عز من قائل: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ٦] فالأمر خطير لأنه إنما يعيب على أحسن الخالقين والخلق كله أعجز من أن يخلقوا ذبابة. ضعف الطالب والمطلوب.

كما أن الذي يسخر من الإنسان بسبب فقره فإنه ينسى أن المال غادٍ ورائحٌ وأن الرزق بيد الله يقبض ويبسط كيف يشاء كما في قوله عز وجل: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى**﴾ [النجم: ٤٨] وذلك وفقًا لحكمة يعلمها الله وإن خفي أمرها على العباد، فهذا أيضًا سوء أدب مع الله.

ومثل تلك السخرية بسبب الأمور التي يتفاخر بها الناس ويتطاولون بها على العباد كالتفاخر بالأنساب والأحساب فهذه أشياء لا دخل للإنسان فيها ولا اختيار ولا فضل له فيها أو امتياز فالناس من آدم، وآدم من تراب.

وبالجملة فلا يسخر من غيره إلا جاهل، وانظر إلى قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧]، فالسخرية والاستهزاء من فعل الجهلاء والسفهاء، ولذلك أمر اللَّه عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ بالإعراض عنهم كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الاعراف: ١٩٩].

* * *

الساخر يعيب الآخرين بما فيه

كما أن فضائل الإنسان ليست محصورة في حدود جسده أو في صورته المادية أو في بعض أموره المرئية. بل قد توجد فيه جوانب هي أعظم من ذلك كإيمانه ورجاحة عقله وطهارة قلبه وتقواه وحبه للخير وأفعال البر والإحسان ولذلك فالله لا ينظر إلى المظاهر أو الماديات بل إلى البواعث والنيات.

كما أن الساخر حينما يسخر من عيوب غيره فكأنه يزعم أنه خلوٌ من تلك العيوب مع أنه قد يكون له من النقائص والعيوب ما هو أكثر مما سخر منه. فالساخر يكون في الحقيقة أقل شأنًا ممن يسخر منه حتى وإن كانت مكانته الاجتماعية أرفع منه ولكنه انحط بسخريته إلى أسفل سافلين وباء بغضب من رب العالمين ففي حديث البخاري: «من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب».

كما أن الساخر يشعر في أعماق نفسه أن المسخور منه هو أفضل منه ولذلك فهو يحاول أن يشوه صورته ويحط من شأنه ويستهزئ به ويزدريه وذلك لستر ما يشعر به

من نقص وحتى لا يعيره أحد بذلك أو لا يلتفت الناس إلى ما فيه من العيوب والمثالب. ولذلك يلجأ الساخر إلى تحطيم مكانة الآخرين حتى يستحوذ على المكانة والتقدير وينفرد وحده بالتكريم والتبجيل وأن يكون محط الأنظار وملء الأسماع والقلوب.

وما أصدق قول القائل: (إذا أردت أن ترى العيوب كلها فتأمل عيّابًا يعيب الناس، فإنما هو يفعل ذلك بفضل ما فيه من العيوب) فكل إناء بالذي فيه ينضح. ومن أكثر من عيب الناس فإنما يشهد عليه هذا الإكثار أنه إنما يطلب عيوب الآخرين بقدر ما فيه من العيوب أما المؤمن فهو يعفّ عن ذكر المساوئ وينزه نفسه عن هذا المستوى الشائن فهو كما في حديث الترمذي وأحمد: «**ليس بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**» فهو يصدق فيه قول ربه عز وجل: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالمؤمن لا يرد على البذيء بمثل سفهه وبذاءته، فتصرفاته ليست ردود أفعال وإلا لأصبح ألعوبة في أيدي الناس، بل هو يملك في يده زمام المبادرة لأنه يعي جيدًا ما ورد في الحديث المتفق عليه: «**وخيرهم الذي يبدأ بالسلام**»، ولو أنه استسلم للناس يستفزونه وانشغل بالانتقام ممن أساء إليه فإن ذلك سيصرفه عن رسالته في الحياة فهو ليس للهدم بل خلق للبناء. وهو يعفو ويصفح مع قدرته على الانتصار لنفسه ويتحمل الأذى والإساءة صابراً محتسبًا لأنه يعلم أن هذه الدنيا مهما طال فيها البلاء فهي قصيرة وإلى زوال وهو لا يريد أن يشوش على قلبه فهناك يوم سيجمع فيه اللَّه العباد للحساب، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**﴾ [الحجر: ٨٥].

وهو يعفو لأنه يعلم أن العفو سبب للمغفرة كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿**فَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [النور: ٢٢]، ولذلك فهو لا يقابل السيئة بمثلها لأنه لا يتعامل مع الناس بل مع اللَّه، فهو يضع دائمًا نصب

عينيه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ [الإنسان: ٩]، ويضع أمامه أيضًا حديث الشيخين عن السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله يوم القيامة، ومنهم: «رجل أنفق نفقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه»، فهو لا يريد أن يراه الناس بل يريد أن يكون عمله خالصًا لوجه اللَّه.

وفي حديث الترمذي أن السيدة عائشة سُئلت عن خلقه ﷺ فقالت: (كان لا يجزي السيئة بمثلها بل يعفو ويصفح)، ففي حديث الشيخين حينما دخل اليهود على رسول اللَّه ﷺ وقالوا له: السام عليك يا محمد بدلاً من السلام عليك، فما زاد على أن قال: «وعليكم»، بينما غضبت السيدة عائشة وردت عليهم بعنف، لكن الرسول ﷺ لم يعاملهم بالمثل أو بأسلوب فيه فحش، فليس المؤمن بالفاحش ولا البذيء.

كما أن المؤمن يعي جيدًا قوله عزَّ وجلَّ لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، فاللَّه عزَّ وجلَّ يعلم أن فرعون الذي ادَّعى الألوهية ستأخذه العزة بالإثم ولن يجدي معه لين القول وأنه سيموت على الكفر، ومع ذلك يأمر موسى وهارون عليهما السلام أن يقولا له قولاً لينًا، فهو درس يعلمه اللَّه لنا، وصدق اللَّه إذ يقول لرسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

كما أن المؤمن يضع أيضًا نصب عينيه قول اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الاحزاب: ٢٣]، ولذلك فهو لا يبدل ولا يساوم أو يتنازل ولا يتغير أو يتلون بل يظل صابرًا صامدًا محتسبًا إلى أن يحدث اللَّه أمرًا كان مفعولاً، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، وهو يتذكر قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وهو يعلم أن الأيام دُول، ولذلك فهو لا ييأس ولا يبتئس، فهو أمة وحده لا تغره

زينة الحياة الدنيا، ولا تقلب الذين كفروا في البلاد هو صعب الاختراق، شامخ وراسخ كالجبال الراسيات، لا تستفزه حماقة الجاهلين ولا يستخفه كيد الكائدين.

فهو كابن آدم الأول حينما أراد أخوه قتله بسبب الغيرة والتنافس على أمور الدنيا، فحاول أن يلفت نظره إلى مجال أرحب وأرقى فوجَّهه إلى سعة التقوى فقال له: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ورفض أن يقاتله لا خوفًا منه ولكن خوفًا من اللَّه عزَّ وجلَّ، فقال له: ﴿لَئِنْ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٨]، فأخوه وإن أقدم على قتله ولكنه لا يستطيع أن يجعل منه قاتلاً أو يحمله على أن يُعامله بالمثل أو إلى رد الصاع صاعين مع قدرته على ذلك لأنه يتعامل معه من منطلق آخر، ويعيش في أفق سامٍ وطاهر ولا يستطيع أن ينزل إلى هذا المستوى الهابط، فهو ليس حرًّا يفعل ما يحلو له بل له قِيم ومبادئ تحكم حياته فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر كما في حديث مسلم، فهو غناه في قلبه وبستانه في صدره، فليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس كما في حديث الشيخين. وصدق من قال:

ومن كانت نفسه بغير جمال ... لا يرى في الوجود شيئًا جميلاً

* * *

أسلوب القرآن في التنفير من السخرية

وقوله عز وجل: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١] فالقوم هو جماعة الرجال والنساء وذلك من باب تغليب الذكور على الإناث، كما في كلمة (أبواه) أي أباه وأمه كما في قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٠] ولكن كلمة «قوم» هنا تعني الرجال خاصة وذلك مستفاد من ذكر النساء بعد ذلك في قوله عز وجل: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١].

ولفظ القوم في الأصل مختص بالرجال لأنهم هم القوامون على شئون النساء ولأنهم يقومون مع داعيهم حينما يدعوهم عند الشدائد والملمات ولما كان موضوع السخرية خطيراً ويحدث بين الناس كثيراً فقد أراد الله اقتلاع هذا الفعل الذميم من الجذور واستئصاله من النفوس ولذلك استعمل لفظ القوم وأراد الرجال وذلك لدلالة لفظ «القوم» على المقاومة والقوة والقدرة على مباشرة الأعمال وإنجاز المهمات.

بينما عبر عن الإناث بما هو مشتق من النسوة بفتح النون وهو ترك العمل وذلك لبيان أن السخرية أمر يأتيه كل الناس وتأتيه النساء الفارغات البال وذلك في مجالسهن التي يكثر فيها الكيد والنميمة وتحلو فيها الثرثرة ويكثر فيها القيل والقال كما قال عز وجل: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ**﴾ [يوسف: ٣٠، ٣١] ولذلك فعلى الرجال أن يترفعوا عن مثل ذلك وينأوا بأنفسهم عنه، فالله يستثير فيهم النخوة ليتركوا السخرية فإنه لا ينتهي عن ذلك إلا أهل التقى والإيمان الصادق وإلا أصحاب الهمم وذوو الإباء والشمم.

* * *

الفرق بين «لعل» و«عسى»

ولذلك فمن فروق التعبير الجديرة بالذكر استعمال (لعل) و(عسى) في سورة الحجرات فكلاهما أداة تفيد الرجاء ولكن (عسي) أقرب إلى التحقيق والتأكيد من (لعل)، فـ(لعل) تفيد التقريب والإطماع، و(عسى) تدل على القرب والإمكان.

ولذلك جاء بالتعبير (لعل) في باب الحث على الإصلاح في الآية السابقة: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾

[الحجرات: ١٠]، وذلك لأنه أمر يتعلق بالغير فلا يصلح معه التعبير بـ(عسى) التي هي أقرب إلى التحقيق من (لعل) كما بينا.

فقد يدعو الإنسان إلى الإصلاح رئاء الناس ولنيل المديح منهم والجزاء، وقد يكون صادقًا في نيته في الإصلاح، ولكن نسبة طلب الصدق والإخلاص إلى طلب السمعة والمحمدة من الناس أقل في واقع الحياة كما نراها الآن في حرص الإنسان على أن يكون ذا صيت وشهرة بين الناس أكثر من حرصه على أن يكون أقوى تعلقًا بالله، وهو من ضعف الإيمان.

أما نهي النفس عن السخرية من الناس فدرجة الإخلاص فيه أقوى، والتظاهر فيه أقل، فقوة الإيمان هنا هي التي تضبط النفس وتحملها على الالتزام والكف، ولذلك جاء التعبير بـ(لعل) فيما يتعلق بالغير، وجاء التعبير بـ(عسى) فيما يتعلق بالنفس، فلكل أداة موطنها المناسب للسياق وحسبما يقتضيه المقام.

* * *

لماذا خص النساء بالنهي عن السخرية؟

ومع أن النساء يدخلن عادة في الخطاب التشريعي مع الرجال، فقد أفردهن الله هنا بالنهي وذلك رفعًا لتوهم عدم شمول النهي لهن بل وأكد معنى النهي للنساء أيضًا بالأسلوب نفسه أي كما قال: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] قال بعدها مباشرة: ﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١].

كما أن النساء تكثر منهن السخرية كما تسخر المرأة من ضرتها وجارتها، ولذلك خصهن الله بالذكر لتفشي السخرية بينهن وكثرة صدورها منهن.

كما أن النساء يفخرن بأمور غير تلك التي يفخر بها الرجال، كالزينة والجمال فهي

أشياء أقرب إلى طبيعتهن ونشأتهن كما في قوله عز وجل: ﴿أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] وذلك بخلاف الرجال الذين يفاخرون بالقوة والكثرة والغلبة كقول صاحب الجنتين ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

لماذا خص الجماعة بالنهي دون الأفراد؟

وقد يقول قائل: إن الله نهى عن سخرية قوم من قوم أو جماعة من جماعة فيلزم من ذلك أنه لا بأس من سخرية واحد من واحد!!

والجواب: أن اختيار الجمع لا يعد رخصة تجيز سخرية الواحد من الواحد بل عبر بالجمع هنا لبيان الواقع لأن السخرية وإن كانت بين اثنين إلا أنها تقع في الغالب بين جماعة من الناس تقر الساخر على فعله وتضحك لقوله وتشجعه على التمادي في سخريته.

فتصرف الإنسان في الجماعة يختلف عن تصرفه وحده أو مع جماعة قليلة العدد فالإنسان يتأثر بالجماعة التي من حوله ويتغير سلوكه ويفكر بعقلية غيره وهو ما يسمى بالعقل الجمعي أو عقلية القطيع ولذلك فالسخرية إنما تكثر في المجامع والمنتديات حيث يكون الدافع إليها أن الساخر يريد أن يستحوذ على إعجاب الآخرين وأن يبدو أمامهم في صورة الشخص الذي يتمتع بالظرف وخفة الدم وأنه يريد أن يرفه عن الجلساء وتسليتهم وإضحاكهم ولكن مما يؤسف له أنه يفعل ذلك على حساب كرامة الآخرين وبغير اكتراث بما يلحق المسخور منه من الأذى والغيظ وما يترتب عليه من إيغار الصدر، فهو ساكت لا يستطيع الرد لعجز أو لسبب ما ولكنه يتحين الفرصة للثأر والانتقام.

وأيضًا كان النهي عن السخرية للرجال مع الرجال أولاً ثم للنساء مع النساء وذلك لأن الغالب في السخرية أن تكون بين أفراد الجنس الواحد أو مع مماثل لك أو

مكافئ، فنخوة الرجال تأبى عليهم غالبًا أن يتعرضوا للنساء بالسخرية، فالرجل يعف عن السخرية من المرأة لأنه لا يعتبرها عنصراً ينافسه في مكانته الاجتماعية فهو مسئول عنها وله قوامة عليها وأيضًا فإنه في مقابل ذلك فما وقر في نفوس النساء من إجلال الرجال وما يشعرن به في الرجال من معاني القوة والقوامة والشهامة مما يصدهن عادة أن يتعرضن للرجال بالسخرية.

وأيضًا بالإضافة إلى هذا العامل النفسي فهناك عامل اجتماعي فلم يقل ربنا عز وجل: (لا يسخر رجال من نساء أو العكس) وذلك لأن الأصل في المجتمع الإسلامي ألا يكون فيه اختلاط بين الجنسين ولذلك لا تطالب المرأة بحضور صلاة الجماعة في المساجد كما هو الحال في شأن الرجال. والسخرية إنما تكون في الغالب عند المواجهة والاختلاط وفي هذا إشعار بأن مجالسة الرجل للمرأة أمر غير مرغوب فيه في حكم الشارع الحكيم. ولكن لما ضعفت الآن قوامة الرجل على المرأة وذلك بسبب استقلال المرأة عن الرجل واستغنائها عنه وذلك لنزولها إلى مجال العمل ومزاحمتها للرجال واختلاطها بهم وكان ذلك بعد أن تبرجت وخلعت حجاب الحياء، فقد سرى داء السخرية بين الرجال والنساء في مختلف مجالات العمل والحياة بعد أن زالت الحواجز والفوارق وانعكست الأوضاع فحصل اللبس والاختلاط ووقع ما لا يحمد عقباه.

* * *

حذف وإثبات

والله عز وجل يريد لعباده أن يتطهروا من رجس السخرية وأن يحذفوها من قاموس معاملاتهم مع بعضهم البعض ولا أدل على ذلك من أنك إذا نظرت إلى سياق الآية الكريمة لاحظت أنه بعد أن قال: ﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١] قال بعدها: ﴿وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١] وكان الأصل أو القياس أن يقول:

(ولا يسخر نساء من نساء) ولكنه أسقط كلمة «يسخر» من السياق الكريم فهي ليست كلمة محببة إلى قلب المؤمن ولا هي أثيرة لديه وكأنها إشارة إلى وجوب اختفاء السخرية من حياة الناس ووجوب زوالها من معاملاتهم.

ولكنه في مقابل حذف وإسقاط كلمة «يسخر» من سياق الآية الكريمة وذلك حثًّا للساخر على تجنب السخرية والتخلص منها، فإنه في جانب المسخور منه كرر ذكره مقرونًا بالخير بينما كان في الإمكان الاكتفاء بقوله: ﴿وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾ [الحجرات: ١١] دون ذكر علة النهي وهي قوله: ﴿عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١] قياسًا على أن ذلك مفهوم من السياق السابق وذلك في قوله في شأن الرجال: ﴿عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] كما حذف كلمة «يسخر» اكتفاء بذكرها من قبل، ولكنه أعاد علة النهي مرة أخرى وهي وجود الخيرية في المسخور منه وذلك للتأكيد على أن المسخور منه قد يكون أفضل عند الله من الساخر وأكرم منه، لأن الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا يعلمون الخفيات والمستورات فعلم ذلك عند الله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

* * *

وعيد الله للساخرين

وانظر أيضًا في ذلك إلى ما أعده الله من الوعيد لمن يسخر من المؤمنين وإلى ندم الساخر وحسرته يوم القيامة أنه كان من الساخرين يقول عز وجل: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦] وانظر أيضًا إلى خلود الظالمين في الجحيم وما ذلك إلا بسبب سخريتهم من عباد الله المؤمنين يقول عز وجل: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا

صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨-١١١] وورد مثل ذلك في سورة ص (٦٢ - ٦٣).

وشبيه بذلك ما ورد في سورة «المطففين» في شأن المجرمين وكيف انعكست الأوضاع ودارت الدائرة على الكفار يقول عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩-٣٦].

وانظر أيضًا في نفس المعنى إلى قوله عز وجل: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة: ٢١٢] فقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢] مصداقًا لقوله عز وجل في سورتنا هذه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ومن ضحك أخيرًا ضحك كثيرًا فالعاقبة للمتقين.

* * *

ولا تلمزوا أنفسكم

أما قوله عز وجل بعد ذلك: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، فاللمز هو الطعن باللسان، والإشارة والتنبيه إلى العيوب والأخطاء وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] لأن من عاب مؤمنًا فكأنما عاب نفسه، فالمؤمنون كنفس واحدة وقد مر بنا في الآية السابقة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وهم كما في الحديث المتفق عليه كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى. فقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] كقوله عز وجل:

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

أو قد يكون المعنى: لا تفعلوا ما تلمزون وتعابون به فإن من فعل ما يستحق به اللمز فقد لمز نفسه أو تسبب في لمزها وعيبها وذلك لأن المؤمن حينما يلمز أخاه فإن ذلك يكون سببًا لأن يبحث الملموز عن عيوبه فيلمزه بها فيكون بذلك لامزًا لنفسه أو متسببًا في ذلك كما في الحديث المتفق عليه: «من الكبائر شتم الرجل والديه قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

وعليه فمعنى قوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] أي لا تعيبوا فتعابوا أو لا تلمزوا الناس فيلمزوكم فتكونوا في حكم من لمز نفسه فالمؤمنون كما بينا مجتمع واحد بعضهم من بعض، فلمز الواحد منهم غيره إنما هو لمز لنفسه فليكره أحدكم أن يلمز غيره كما يكره أن يلمزه غيره فقوله: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١] فيه علة النهي عن اللمز كما أن قوله: ﴿عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجرات: ١١] فيه أيضًا علة النهي عن السخرية.

* * *

ووعيد شديد للامزين

ومثل السخرية فقد ورد في القرآن وعيد شديد لمن يلمزون الآخرين يقول عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]. والآية بعدها تبين لنا السبب الذي يدفع الإنسان إلى لمز الآخرين وعيبهم يقول عز وجل: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ [الهمزة: ٢، ٣] فهو يتطاول على الناس بما لديه من المال ولذلك جاء الجزاء في الآية التي بعدها وهي قوله عز وجل: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٤] واختير من أسماء النار «الحطمة» على وزن فُعَلة وذلك لتتناسب مع هذا الهمزة واللمزة فهما أيضًا على وزن فُعَلة وهو الذي يتأتى منه الهمز واللمز كثيرًا

فالجزاء من جنس العمل كما أن الحطمة تحطم كبرياءه وتهينه وتذله كما كان يتكبر على الناس ويهينهم فالسخرية واللمز نوع من القتل ولكنه قتل معنوي وسحق لكرامة الإنسان فهو الآن محطم في النار ومهان جزاء وفاقًا.

وانظر أيضًا إلى الوعيد الشديد في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٩، ٨٠].

فهؤلاء قد جمعوا بين السخرية واللمز كما في آيتنا هذه، الآية ١١ من سورة «الحجرات» ولذلك بلغ ما توعدهم به الله إلى الحد الذي لا ينفعهم فيه استغفار رسول الله ﷺ لهم وقال عز وجل في حيثيات الحكم أيضًا أنهم يستحقون ذلك بسبب أنهم كفروا بالله ورسوله، فالسخرية بالمؤمنين والاستهزاء بهم مثل الكفر يقول عز وجل: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ونلاحظ أن الله عز وجل كما أمر رسوله ﷺ في سورة التوبة بعدم الاستغفار للساخرين اللامزين فإنه نهاه أيضًا في نفس السورة عن الاستغفار للمشركين الذين ماتوا على شركهم وكفرهم وذلك في قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

فالساخر الذي يستهزئ بالمؤمن بمثابة المشرك الذي لا رصيد له من الإيمان لأن الإيمان إذا كان موجودًا في قلبه لمنعه من السخرية من إخوانه المؤمنين وقد وصف الله الساخرين اللامزين بأنهم فاسقون كما قال في خاتمة الآية: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠]، ولا يجتمع إيمان وفسق في قلب عبد فالله عز وجل قد ساوى

بين الساخر اللامز وبين المشرك الكافر وأنزله منزلته لأن مقتضى الإيمان عدم السخرية من الإخوان.

وأيضًا حينما يعيب الإنسان غيره بسبب فقره أو بسبب قبح في وجهه، وذلك من وجهة نظر الساخر وضيق أفقه وجهله - فإنه يجعل هذا المسخور منه غير راض عن قسمة ربه إذ يجعله يسأل ربه عز وجل: لماذا خلقتني هكذا فقيرًا دميمًا بينما خلقت غيري غنيًّا جميلاً؟ فيجعله يعترض على حكمة خالقه ومشيئة مولاه وهذا مدخل إبليس إلى الإنسان ليدفعه إلى الشك واليأس والإلحاد، وإلى الجحود والكفران ولعل هذا هو السر في مجيء هذا الوعيد الشديد في حق الساخرين واللامزين.

* * *

ولا تنابزوا بالألقاب

أما قوله: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١]، فالمراد به الألقاب التي تحمل معنى التحقير والإهانة مما يكره الإنسان أن يلقب به فهذا من شأنه أن يمزق أواصر الأخوة الإيمانية ويولد الحقد والعداوة بين المسلمين فإن من سخر منك أو لمزك فستقوم أنت أيضًا بالرد عليه ولذلك عبر عن ذلك بالتنابز: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] فالتنابز على وزن تفاعل يقتضي وجود طرفين ويستلزم المشاركة من اثنين وذلك لأن كل واحد سرعان ما يقابل الآخر بلقب يكره أن ينادى به عليه ويسوؤه سماعه فالنبز يفضي في الحال إلى التنابز، وتستفحل العداوة وتتفاقم.

ولذلك كان الرسول ﷺ يحب الأسماء الحسنة فقد روى أبو داود بإسناد حسن: «**إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم**» وروى مسلم: «**إن أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن**».

ولذلك ينبغي علينا أن نحسن اختيار أسماء أبنائنا وأن نجنبهم الأسماء القبيحة

التي تمس كرامتهم وتكون مدعاة للسخرية منهم وقد روىٰ الترمذي عن عائشة أن الرسول ﷺ كان يغير الاسم القبيح فقد روىٰ أيضًا الترمذي وابن ماجه أن ابنة لعمر بن الخطاب كان يقال لها عاصية فسماها رسول الله ﷺ: جميلة، وروىٰ أبو داود أن الرسول ﷺ سمىٰ حربًا: سلمًا وسمىٰ المضطجع: المنبعث وسمىٰ بني مغوية: بني رشدة وسمىٰ حزنًا: سهلاً ولذلك فعلىٰ المؤمن أن ينادي أخاه بأحب أسمائه إليه ويمتنع عن تلقيبه بما يكره امتثالاً لما أمر الله عز وجل وحتىٰ تسود المحبة والوئام بين الناس.

* * *

إياكم والانحطاط عن درجة الإيمان

وأما قوله عز وجل: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] ففيه حسن تخلص وانظر في ذلك إلىٰ حسن التناسب بين التنابز بالألقاب وبين التسمي بالفسوق بعد الإيمان. والمعنىٰ: بئس أن تستبدلوا اسم الإيمان بالفسوق.

ومعنىٰ الاسم: السمة أو العلامة المميزة ومن ثم فإنه يراد به حسن الذكر ورفعة الشأن لأن الاسم أيضًا من السمو أي: ما سما وارتفع ذكره وشرفه بين الناس أي: إياكم أن تخدشوا إيمانكم أو تهبطوا عن هذا المستوىٰ الرفيع الذي ارتقيتم إليه وإياكم والانتكاس والارتداد بل حافظوا علىٰ تلك المنزلة السامية التي بلغتموها واحذروا تلك المخالفات فإنها موجبة للفسق والخروج عن طاعة الله.

فقوله: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١] أي: بئس ذلك بعد أن أحرزتم شرف التسمية بالمؤمنين أن تنحطوا إلىٰ درك الفاسقين فالجمع بين الإيمان والفسق أمر قبيح.

فكيف نرضىٰ لأنفسنا بأسوأ الألقاب وقد اختار الله لنا أحسن الأسماء كما في قوله عز وجل: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨] وكيف نتصف بصفات

أهل الفسوق والعصيان وقد حبب الله إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان؟

وكأنه أيضًا يقول لهم: كيف بعد أن ذقتم حلاوة الإيمان وطهر الله قلوبكم للتقوىٰ وهيأها لمدارج الكمال ومعارج الإحسان أن تلوثوا إيمانكم بأدران الكفر والفسوق والعصيان؟ فإما إيمان وإما كفر وفسوق وعصيان فهما نقيضان لا يجتمعان وطريقان لا يلتقيان.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] أي ومن لم يجتنب تلك المخالفات وهي السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ورضي أن يقيم علىٰ الفسق والعصيان بعد أن عاش في رحاب الإيمان فهو من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بتعريضها للعذاب ولغضب الله وعليه أن يبادر ويتوب من هذه الذنوب وإلا كان من الظالمين المستحقين لعقاب الله.

* * *

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الحجرات: ١٢].

اجتناب الظن السيئ

نهانا الله عز وجل في هذه الآية الكريمة عن ثلاثة أمور وهي الظن السيئ والتجسس والغيبة.

فقوله عز وجل: ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] نهي عن كثير من الظن وذلك لأن قلب الإنسان يتعرض لكثير من الهواجس والتصورات وبعضها فقط هو الحق بينما البقية إنما هي قياسات باطلة وتمنيات ووساوس ولذلك فعلينا اجتناب كثير من الظنون والأوهام والخواطر.

أما القليل الذي لا إثم فيه فهو ما يصدقه العقل ويصمد أمام التمحيص والنقد ولكن كيف يمكن التمييز بين أنواع الظنون مع أن الظن القليل الذي يكون فيه الإثم إنما يوجد بين سائر الظن الكثير الذي لا إثم فيه؟ والذي يعول عليه في هذا الأمر قول علي رضي الله عنه: (ما رأته عيناك فهو الحق وما سمعته أذناك فأكثره باطل) وأيضًا نضع نصب أعيننا هذا القول الحكيم الذي ينسب إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: (ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبك ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً) أي: ينبغي أن تلتمس له الأعذار ما استطعت إلى ذلك سبيلاً وألا يظن به إلا خيرًا كما في حديث ابن ماجه.

فنحن نترك الكثير من الظن الذي دخل فيه القليل الذي هو إثم لأننا لا ندري في أي جهة يكون الظن السيئ ولا نستطيع بالضبط تحديد الظن الذي يوجد فيه الإثم وذلك من باب الاحتياط والاحتراز وإيثاراً للسلامة . فإن كان بعض الظن إثمًا فلنجتنب كثيره دفعًا للقليل الذي يوقع في الإثم .

والظن السيئ هو ما يقع في النفس من أمر ليس أولىٰ من ضده بغير أمارة أو دليل كأن تتخيل وقوع شيء من أخيك أو تشك فيه من غير سند أو يقين فليس للمسلم أن يظن بأخيه سوءًا إلا إذا انكشف له أمر لا يحتمل التأويل .

ولذلك فاجتناب الظن السيئ منهج علمي رصين لأن وساوس الشيطان وهواجس الأفكار تتداخل في العادة مع بصائر العقل ومكاسب التجربة والحس ، فلابد إذن من فرزها لنتجنب الظن السيئ منها .

أما إذا استرسلنا مع كل هاجسة في النفس فإننا نفقد المعيار السليم الذي نقيس به الأمور مما يقودنا إلىٰ الفتن العمياء وإلىٰ ما لا يحمد عقباه وصدق من قال : (إن الشكوك والظنون لواقح الفتن وحواجب القرائح والمزن) . ولذلك ينبغي علينا أن نمحص كل ما يرد علىٰ الذهن من الهواجس قبل أن ننطق به كما قال علي رضي الله عنه : (إياك أن تتكلم بما سبق إلىٰ القلب إنكاره وإن كان عندك اعتذار ، فليس كل ما تسمعه شرًا يمكنك أن توسعه عذرًا) .

فالظن السيئ شبهة لا يقوم عليها دليل وتهمة ليس معها تعليل ، فهو ظن ضعيف قد خلا من الحقيقة والقرينة ولا يصلح دليلاً قويًا علىٰ الإدانة . فالأصل في الإنسان براءة الذمة من كل تهمة حتىٰ يثبت خلاف ذلك فينبغي أن نبرئ ساحته من كل شائبة تمس سمعته فالإنسان بريء حتىٰ تثبت إدانته وليس متهمًا حتىٰ تثبت براءته .

* * *

علامة الظن السيئ

وعلامة سوء الظن أن يتغير قلبك نحو أخيك عن ذي قبل وأن يؤثِّر ذلك في معاملتك معه فتنفر منه وتستثقله وتتكاسل في مراعاته وإكرامه وتفقُّد أحواله وعدم الحزن لما أصابه وتعامله بجفوة وريبة فالمحظور في الظن هو ما يترتب من الأثر عليه مع أن الأمر مجرد هواجس وظنون تحدث في النفس وتصور لها الأمور كأنها واقع محسوس بينما لم تعدُ طَور الأوهام والخيال إلا أن آثاره الوخيمة قد تصل في كثير من الأحيان إلى حد الجريمة.

فالمسيء الظن يؤوِّل كل حركة أو إشارة تصدر من الغير تأويلاً باطلاً فإذا رأى شخصًا عابسًا أو مقطب الجبين ظن أنه يريد به سوءًا فيضمر له الشر ويقول في نفسه: أعامله بالمثل فيبادره بالكيد وقد يتورط في الفعل بينما هي مجرد ظنون ليس لها أصل، فقد يكون هذا الشخص الذي تسيء به الظن لديه مشكلة تؤرقه فاصرف نظرك عنه فلست أنت المعني فهو لا ينظر إليك عامدًا بل هو في حقيقة الأمر زائغ العينين شارد الذهن يرثى له فلا تطور الأمر ولا تقل سأرد الصاع صاعين وتتخيل معركة وهمية لا تدور رحاها إلا في نفسك أنت ويؤجج نارها الشيطان عدونا اللدود ويعينه في ذلك النفوس الأمارة بالسوء.

فخطورة الظن أنه يؤدي إلى الظلم والبغي وإلى تحول القلب فتحل فيه مشاعر الحقد والعداوة والبغضاء بدلاً من مشاعر الألفة والحب والصفاء وكذلك من أسباب تحريم الظن السيئ أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب فكيف إذن يحق لنا أن نسيء الظن بالآخرين ونحن لم نطلع على ما أضمره القلب أو ما انطوى عليه الضمير؟!.

فسوء الظن من الكبائر الباطنة التي ينبغي علينا أن ندرك مدى خطرها حتى نسعى في استئصال شأفتها من قلوبنا لأن من كان في قلبه سوء ظن نحو أخيه فإنه لا يلقى

الله بقلب سليم فسوء الظن أعظم إثمًا من السرقة والزنا وإنما ذلك لسوء أثره ودوامه إذ أن أثره يبقى راسخًا في القلب بخلاف آثار معاصي الجوارح فإنها سريعة الزوال فهي تزول بالتوبة والاستغفار وعمل الصالحات فالحسنات يذهبن السيئات ويتوب الله على من تاب .

ولذلك قال عز وجل: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] والإثم هو الذنب الذي يستحق مرتكبه العقوبة، وفي اللغة «وثم» الشيء كسره، فالإثم إذن ذنب أحدث شرخًا في جدار الدين أو كسرًا في تقوى صاحبه فاستحق عليه العقوبة من الله إن لم يبادر بالتوبة والإنابة .

* * *

الظنون والهواجس تشبه خبر الفاسق

فعلى المسلم أن يمحِّص كل ظن يعرض له كما يمحص النبأ الذي يرد عليه من جهة الفاسق كما قال عز وجل في سورتنا هذه: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] فهما أمران يشبه أحدهما الآخر غير أن نبأ الفاسق يأتي من خارج النفس أما الظن السيئ فإنه يأتي من داخلها وكثيراً ما يُؤتى الإنسان من قِبَل نفسه .

فالمحظور في كلا الأمرين: (أمر الفاسق والظن الآثم) إنما هو مايترتب عليهما من الآثار والتصرفات والأفعال التي تصيب الأبرياء بجهالة أي ونحن نجهل حقيقة أحوالهم فالأمر يقوم على العجلة والتسرع لا على التبين والتثبت .

فالله عز وجل لم يكتف بتحذير المؤمنين من خطورة نبأ الفاسقين وعدم الانسياق وراء أقوالهم دون فحص أو تمحيص ولكنه أيضًا يحذر المؤمنين من أخطار تتهددهم من داخل أنفسهم وهي تلك الظنون السيئة في حق إخوانهم المؤمنين .

فإن المؤمن إذا لم يتعلم كيف يكبح جماح ظنونه ويلجمها بلجام الشرع فإنها ستجره إلى مزالق خطيرة وإلى إصدار أحكام الإدانة على الآخرين من غير أن يستند إلى بينة شرعية بل بمجرد الظنون والأوهام والشكوك فإن لم يستطع الإنسان السيطرة على خواطر السوء والتحكم فيها وأن يتصدى لنفسه حينما تأمره بالسوء أو تحدثه بهتك حرمات الآخرين واتهامهم بدون ذنب أو دليل وإنما اتباعًا لهوى النفس وإرضاء لشهواتها فكيف يستطيع مجابهة أعدائه الذين يتربصون به من كل جانب؟ .

* * *

تربية القلوب وتزكية النفوس

ومن هنا كان اهتمام الإسلام بتربية القلوب وتطهيرها من الشوائب وحظوظ النفس. فليس معنى تحذير المؤمنين كثيراً من العدو الخارجي أن نغفل أو نتغاضى عن علاج عيوبنا الداخلية فكثيراً مايؤتى الإنسان من داخل نفسه فقلب المؤمن هو موضع عناية التشريع الإسلامي وصدق الرسول ﷺ إذ يقول في الحديث المتفق عليه: «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**».

والله عز وجل لاينظر إلى الأجساد والمظاهر والقشور بل إلى القلوب التي في الصدور فالإسلام يولي اهتمامه بتزكية النفوس قال عز وجل: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا**﴾ [الشمس: ٧-١٠]، ولذلك يقول عز وجل: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة: ٣٠] ويقول أيضًا عن إخوة يوسف: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾ [يوسف: ١٨]. فالمعركة إنما يدور رحاها أولاً في حمى النفس ويحتدم الصراع فيها بين الحق والباطل وبين الخير والشر حتى ينتصر أحدهما على الآخر ثم يقوم بعد ذلك بقيادة زمامها

وتوجيهها حسبما يريد، فشرع الله إنما يهدف إلى حماية الإنسان من شرور نفسه أولاً فهو يريدها نفساً مطمئنة تأمر صاحبها بالخير وتحثه عليه، نفساً قد خلصت من الشوائب والجواذب ومن هواجس السوء ووساوس الشيطان يريدها نفساً تمحضت للخير ونذرت حياتها عليه كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الانعام: ١٦٢].

* * *

حديث النفس معفو عنه ولكن!

وقد يقول قائل: هذه الظنون التي تجول بالنفس لا أستطيع دفعها أو منعها كما أن الله عز وجل قد تجاوز عن ذلك وعفا عن حديث النفس ما لم نتكلم به أو نفعل كما ورد ذلك في الحديث المتفق عليه: «**إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل**».

ولكننا نقول: حتى لو أن الله عز وجل قد عفا عن ذلك وتجاوز عنه فلا ينبغي أن نأخذ من ذلك رخصة ونلقي للنفس بالحبل على الغارب فنسترسل مع هواجس السوء ونستسلم لها ونتمادى فيها بل يجب أن نقف لها بالمرصاد ونقاومها من البداية وقبل أن تتمكن من القلب ويصعب التخلص منها.

فحافظ على طهارة قلبك أن تخدش أو تمس ولا تترك المجال لخواطر السوء لتنمو وتزداد وإلا فإنها تتخمر وتتبلور وتلقي بزبدها وتصيب الأبرياء بشررها لأنك لم تطردها من أول الأمر بل رحبت بها وهششت لقدومها فانتفشت وانتعشت وعششت في النفس وتربعت على عرش القلب حتى أصبح سوء الظن هو الأصل وتحول الأمر من عرض عابر إلى مرض لازم كالوسوسة في الوضوء أو كالهواجس و لظنون التي تأتيك وأنت تصلي فالشيطان يريد أن يفسد عليك صلاتك كما يريد أن يفسد عليك